

المبحث الثالث

ضوابط التعددية السياسية

ذهبنا - كما سبق - إلى أنه لا مجال في الفقه الإسلامي للتعددية السياسية المطلقة ، وأن الذي يميزه الإسلام تلك التعددية السياسية ، التي تكون في إطار الأصول الثابتة من القرآن الكريم والسنة .

وحتى تكون التعددية السياسية نموذجاً في طريق تحقيق الأهداف والغايات ، التي أنشئت من أجلها ، وتصبح تعددية حقيقية تشد المصلحة العامة ، كان لا بد أن تلتزم بثوابت لا تتعدها ، وتتقيد بضوابط لا تتجاوزها ؛ وهذه الضوابط تتمثل في :

١ - أن تكون التعددية السياسية مؤمنة تمام الإيمان بالعقيدة الإسلامية ، والشريعة الإسلامية المنبثقة عنها : قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، فلا يسمح أن تتحزب على أصل بدعي يخالف أصول السنة والجماعة ، أو بدع جزئية كثيرات ^(١) .

٢ - أن يكون الالتزام بالحق والمصالح العامة للأمة هو البديل عن الالتزام الحزبي الذي تقررته الأحزاب العلمانية : فالذي يحكم القرار ، والاختيار ، والتوجه هو الحق والمصلحة ، وليس مجرد الانتماء إلى الحزب ، أو الانتساب إلى تكتل سياسي بعينه ، فهذا يمثل في ميزان الشرع جريمة منكرة ، وهو نوع من

(١) أبو فارس : مدى شرعية الانتماء (ص : ٣٩) ، الصاوي : التعددية السياسية (ص : ٥٧) .

العصبية الجاهلية ، قال ﷺ : « مَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ ، فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي رُوي ، فَهُوَ يَنْزِعُ بِذَنبِهِ »^(١).

وقد نبه الدكتور يوسف القرضاوي إلى جملة من أخلاقيات التحرر من التعصب للجماعة أو للحزب ، فقال : « ومن هذه الأخلاقيات : أن ينظر إلى القول لا إلى قائله ، وأن تكون لديه الشجاعة لنقد الذات ، والاعتراف بالخطأ ، والترحيب بالنقد من الآخرين ، وطلب النصح منهم ، والاستفادة مما عند الآخرين من علم وحكمة ، والثناء على المخالف فيما أحسن فيه ، والدفاع عنه إذا اتهم بالباطل أو تناول عليه أحد بغير حق »^(٢).

٣ - التزام السمع والطاعة لدى ولي الأمر باعتباره ممثلاً لكافة الأمة وعدم منازعته أو شق عصا الطاعة : « إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا »^(٣) ، قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

[النساء : ٥٩]

٤ - الإقرار بالحاكمية لله تعالى في جميع نواحي الحياة وجزئياتها ، وتفرد به بذلك سبحانه عما سواه : قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف : ٤٠] ؛ وأن تكون غايتهم إقامة القانون الإلهي ، والمحافظة على استمرار تطبيق الشريعة الإسلامية في كل شؤون الحياة ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا

(١) أخرجه أبو داود : السنن (كتاب الأدب ، باب في العصبية ٤ / ٣٣١ ح ٥١١٧) ، والحديث

صحيح ، الألباني : صحيح سنن أبي داود (٤ / ٣٣١ ح ٥١١٧).

(٢) القرضاوي : الصوحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (ص : ٢٢١).

(٣) سبق تحريجه ، وهو صحيح.

عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَقِيبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ [الحج: ٤١].

٥ - محاربة الداعين إلى إقصاء الشريعة الإسلامية عن واقع الحكم ، دون مهادنة أو مداراة ، وعدم موالاته أي راية منحرفة عن منهج الله ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣] .

يقول الشيخ سعيد حوى - رحمه الله : « فلا ولاء في الإسلام إلا على أساسه النظري والعملي ، وكل آصرة أخرى يعطي الناس ولاءهم على أساسها آصرة باطلة ، والولاء على أساسها باطل ، ولا يكون الإنسان معها من المؤمنين ، فالله يأبى علينا أن نعطي إلا بجامع الإيثار والإسلام »^(١).

٦ - العمل على تحقيق المصالح العامة للأمة ، ودفع المفسد عنها ، وإفراغ الجهد في ذلك : وأن تكون هذه المصالح بمثابة الإطار الجامع الذي يتفق الجميع على دعمه ، وهم في هذه الدائرة نسيج واحد وحزب واحد ، وهم يد على من سواهم ، ولا يمنع التفاوت فيها وراء ذلك من الأساليب من تماسك كافة هذه الفصائل والتقاءها جميعاً في هذا الخندق الجامع^(٢).

٧ - المحافظة على وحدة الأمة المسلمة : إذ تمثل الوحدة صمام الأمان في علو شأن الأمة وقوة شوكتها ومجابتها لأعدائها ، قال تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، فدون ذلك تشرذم الأمة وذهاب ريحها قال تعالى : ﴿وَلَا تَنْزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

٨ - إحسان الظن بالآخرين ، وخلع المنظار الأسود عند النظر إلى أعمالهم

(١) حوى : جند الله ثقافة وأخلاقاً (ص: ١٧٣).

(٢) أبو فارس : التعددية السياسية (ص: ١٠) ، الصاوي : التعددية السياسية (ص: ١١٦).

ومواقفهم : فلا ينبغي أن يكون سلوك المؤمن واتجاهه قائماً على تزكية نفسه واتهام غيره ، وهذا الأمر يعد من المبادئ الأخلاقية المهمة في التعامل بين الإسلاميين ، فالمؤمن - كما قال بعض السلف - أشد حساباً لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، فهو أبداً متهم لنفسه لا يتسامح معها ، ولا يبرر لها خطأها ، يغلب عليه شعور التفريط في جنب الله ، وهو في الجانب المقابل يلتمس المعاذير لخلق الله ، وخصوصاً لإخوانه ، والعاملين معه لنصرة دين الله ، فهو يقول ما قال بعض السلف الصالح : ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين ، ثم أقول : لعل له عذراً آخر لا أعرفه .

إن سوء الظن من خصال الشر التي حذر منها القرآن والسنة ، فالأصل حمل المسلم على الصلاح ، وألا تظن به إلا خيراً ، وأن تحمل ما يصدر منه على أحسن الوجوه ، وإن بدا ضعفها ، تغليباً لجانب الخير على جانب الشر ، والله تعالى يقول : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] ، والمراد ظن السوء الذي لم يقم عليه دليل حاسم^(١) .

٩- التناصح والتواصي بالخير : وهذا من لوازم التعددية السياسية الإسلامية ، حتى تكون الأمة قوية موحدة لا تفرقها الوسائل المتباينة في خدمة الإسلام ، والله تعالى يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ٣] ؛ ويقول النبي ﷺ : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ »^(٢) .

وكذلك ينبغي احترام الرأي المخالف ، وعدم الإنكار على الآخرين ، مهما

(١) القرضاوي : الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والفرق المذموم (ص : ٢٢٣ ، ٢٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم : الصحيح (كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ١ / ٧٤ ح ٥٥) .

اختلفوا معه في الفروع الاجتهادية ، فلكل مجتهد نصيب ، إذ الإنكار والتشنيع عليهم وإيذائهم بذلك يورث التفرق والاختلاف ، ومن هنا كانت دعوة الإمام الشهيد حسن البنا - رحمه الله - للعاملين في حقل الدعوة إلى التسامح في المختلف فيه فقال : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » .

١٠- الحوار بالتي هي أحسن : وهذه من الدعائم الأساسية في أدب الاختلاف ، وهو ما أمر الله تعالى به في كتابه حين قال : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، فالقرآن يطلب اتخاذ أحسن الطرائق وأمثلها للجدال ، أو الحوار حتى يؤتي أكله ؛ ومن هذه الطرائق أو الأساليب : أن يختار المجادل أرق التعبيرات وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر ، ولهذا استخدم القرآن في مخاطبة اليهود والنصارى تعبيراً له إيجاباً ودلالته في التقريب بينهم وبين المسلمين ، وهو تعبير « أهل الكتاب » أو « الذين أوتوا الكتاب » .

ومن أساليب الحوار بالحسنى : التركيز على نقاط الالتقاء ، ومواضع الاتفاق بينك وبين من تحاوره ، وهو أسلوب قرآني ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ؛ فإذا كان هذا موقف المسلم من يجادله من أهل الكتاب الذين يخالفونه في عقيدته ، فكيف ينبغي أن يكون موقفه من أخيه المسلم ؟ .

إن الكلمة العنيفة لا لزوم لها ، ولا ثمرة تجتنى من ورائها ، إلا أنها تجرح

المشاعر ، وتغير مودة القلوب ، قال الشاعر :

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يشعب

إن حسن اختيار بعض الجمل أو العبارات المناسبة في بعض الأحيان ، يحل مشكلات ويفض اشتباكات ؛ وهذا ما يحسن بالدعاة والمفكرين ، والعاملين للإسلام أن يحرصوا عليه ويدققوا فيه^(١).

١١- نبذ الخلاف والفرقة ، والبعد عن التباغض والشحناء : فالاختلاف في الفروع الاجتهادية لا يوجب التخاصم والكراهية ، قال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ؛ وقال ﷺ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، وَلَا يَحْقِرُهُ ... »^(٢) ؛ وكذلك إزالة الحسد ، فهو الذي يحمل على صاحبه على اتباع هواه ، ويجعله يتكلم فيمن يحسده ، والله در القائل :

لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله !

وعدم الحسد ، والإحسان إلى المسلمين هو الأمر اللازم لتحقيق النصر بين المسلمين^(٣) ؛ وهذا هو الذي أمر به النبي ﷺ في قوله : « مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَضُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَضُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ

(١) القرضاوي : الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم (ص : ٢٤٥ - ٢٥٢).

(٢) أخرجه مسلم : الصحيح (كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ٤/ ١٩٨٦ ح ٢٥٦٤).

(٣) الياسين : ضوابط العمل الإسلامي (ص : ١٠٢).

فِيهِ نُصْرَتُهُ»^(١).

فينبغي على العاملين في الأحزاب السياسية أن يتقوا ذلك ، وأن يحسنوا في أعمالهم وأقوالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

١٢- أن تنتهج الأحزاب السياسية أسلوب الوسطية في أقوالها ، وأعمالها ، وأحوالها ، دون إفراط أو تفريط : فمن مقاصد الدين الإسلامي بناء المجتمع المسلم الوسط ، وإن الغلو أو الجفاء يخالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فدين الله تعالى بين الغالي والجاني ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وليس معنى الوسط البرود وتمييع القضايا ، والتسوية في القيام بالواجبات ، وهذا خطأ ، فلا بد من أخذ الكتاب بقوة ، لكن الوسط أخذ أمر الله وأمر رسوله ﷺ حباً وتسليماً وانقياداً ، كما أراد الله ورسوله ﷺ بلا زيادة ولا نقص^(٢).

واتباع المنهج الوسط دعامة في التعددية السياسية لتقريب الشقة وإزالة الجفوة بين الداعين للإسلام ؛ ويعتبر أيضاً من أهم أسباب الوفاق والتقارب بينهم : تجنب التنطع في الدين ، وهو ما أنذر النبي ﷺ أصحابه بالهلاك فيما رواه عنه ابن مسعود رضي الله عنه قال : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثاً^(٣) ؛ سواء كان هذا القول إخباراً عن هلاكهم ، أم دعاءً عليهم^(٤) ؛ والمتنطعون كما قال الإمام النووي - رحمه الله : المتعمقون الغالون ، المجاوزون الحدود في أقوالهم

(١) أخرجه أبو داود : السنن (كتاب الأدب ، باب من رد عن مسلم غيبة ٤ / ٢٧١ ح ٤٨٨٤) ،

والحديث حسن ، الألباني : صحيح الجامع الصغير (٢ / ٩٩٢ ح ٥٦٩٠).

(٢) القرني : عشرة ضوابط للصحة الإسلامية (ص : ٢١ - ٢٣).

(٣) أخرجه مسلم : الصحيح (كتاب العلم ، باب هلك المتنطعون ٤ / ٢٠٥٥ ح ٢٦٧٠).

(٤) القرضاوي : الصحة الإسلامية بين الاختلاف المشوع والفرق المذموم (ص : ٩٥ - ٩٧).

وأفعالهم^(١).

١٣- الإخلاص التام في العمل ، والاعتراف بالتقصير ، ودوام الاتصال مع الله سبحانه وتعالى : وبهذا تحفظ الدعوة والحركات الإسلامية ، فينبغي على العاملين في حقل الدعوة الإسلامية ألا يألوا جهداً ، ولا يدخروا وقتاً في خدمة دعوة الله ، والخضوع والانقياد له تعالى ، فيبدلوا ويجاهدوا ويدعوا ، وفي المقابل لا يزكوا أنفسهم ، ولا يدعوا الكمال ، ولا يصيبهم العجب ، بل يهتموا أنفسهم دوماً بالنقص والتقصير ، فيجددوا توبتهم وإنابتهم لله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور: ٢١].

وهكذا إذا كانت الجماعات الإسلامية سليمة الفطرة ، معترفة بتقصيرها في جنب الله ، فإن الشدائد تجملها ، وتوحد صفها في مواجهة أعداء الله ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه العاملون للإسلام دوماً : ﴿ إِنْ أَلَّ اللَّهُ تَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصًا ﴾ [الصف: ٤].

(١) النووي: شرح صحيح مسلم (١٦/ ٢٢٠).